القسم الأول

أولا

آراءٌ لغويةٌ غيرُ مقبولةٍ لابن خلدونِ

أشـــرنا فيما سبق أن ابن خلدون لا يقيد نظراته وآراءه اللغوية بأصل ترجـــع إليه، خلافًا لعلماء اللغة الأوائـــل الذين اعتبروا أن الأصل الذى تُجمع من أجله.. اللغة هو القرآن الكريم. فعل ذلك.. انطلاقًا من رؤيته الواقعية التى تســـتقرى الأشـــياء، فى كل مجال نَظَرَ فيه، دون أن تربط أيًّا منها بأصل ترجع إليه. فابن خلدون.. أقرب على العَلمانيين من هذه الناحية، أو إلى الفلاســـفة الوضعيين الذين يدرسون الواقع، ولا يلتفتون إلى ما وراء الواقع (أى – لا يلتفتون إلى عالم الغيب، وما نزل من أقوال من عالم الغيب).

وهذا.. يتبين من النصوص الآتية التى أخذناها من مقدمته، يقول فى النص الأول عن اللهجات العاميات.

هل اللهجةُ لغةٌ قائمةٌ بذاتها؟

١ – فأمـــا أنهـــا لغة قائمة بنفســـها فهو ظاهر، يشـــهد له ما فيها مـــن التغايـــر الذى بَعُدَ عـــن صناعة أهل النحو، لحنًـــا، وهى مع ذلك تختلـــف باختلاف الأمصار فى اصطلاحاتهم؛ فلغة أهل المشـــرق مباينة بعض الشـــىء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما، وكل منهم

متوصل بلغته إلى تأدية مقصودة والإبانة عما فى نفسه. وهذا معنى اللسان واللغة. وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم كما قلناه فى لغة العرب لهذا العهد)[1].

تعليق:

قوله: (فأما أنها لغة قائمة بنفسها) فيقصد لغة العامة فى حواضر البلاد العربية. ثم.. انظر إلى قوله فى آخر النص: وفقدان الإعراب ليس بضائر لهم (كما قلناه فى لغة العرب لهذا العهد). فهذا كلام لا يقوله من له (مرجعية) يُعيد لها الأشياء ويدرسها فى ضوئها. لأن أهمية الفصحى.. ليست لأنها أعلى فصاحة من العاميات. فحسْبُ، (لأن الحركات الإعرابية تمنحها من القدرة على التعبير عن المعانى، ومن أحوال المعانى، ما لا يكون فى العاميات التى سقطت منها حركات الإعراب -كما نفصل هذا لاحقًا)، بل لأنها لغة القرآن الكريم، هذه اللغة التى يعتبر تعلمها. عبادةً أو من الدين.

هل يمكن الاعتياضُ عن الحركات -من دون خلل يصيب اللغة؟

٢ - ويقول فى النص الثانى: (ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد واستقرينا أحكامه. نعتاض عن الحركات الإعرابية التى فسدت فى دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه. فتكون لها قوانين تخصها، ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الأول فى لغة مضر، فليست اللغات وملكاتها مجانًا)[2].

---

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، ١٠٧٨-١٠٨٠.

(٢) المصدر نفسه، ١٠٧٣ - ١٠٧٨، وانظر، من المقدمة، ١٠٨١-١١٨٤، فابن خلدون يرى أن ملكة اللغة مستغنية عن صناعة الإعراب بالجملة، ولكن هذا.. صحيح قبل أن=

تعليـــق:

– ومن النقل الســـابق ترى أن ابن خلدون يرى أن اللغة فى عصره، قد ســـقطت منها الحركات التى كانـــت قائمة، فى لغة مضر (وهى لغة أهل مكة المكرمة، وما حولها من القبائل)، وأنها..(= اللغة فى عصره) يمكن أن تســـتغنى عن الحركات بأوضاع، وهيئـــات، وتقديم وتأخير، وإلصاق بعض الحروف بكلمات لم تكن تلتصق بها –وعندئذ تضحى لغة معبرة عن المعانى، فليســـت اللغة –عنده – إلا أداة لإظهار ما فى الفكر والنفـــس. ولذا.. فكل لغة قادرة على الإفصـــاح عما فى الفكر والنفس.. هى مقبولة عنده، بغض النظر عن أن لها صلة بلغة مضر، أو أنها ليس لها بها صلةٌ–!.

– وهذا رأى لا نقره عليه. لأنه رأى لا يختلف شـــيئًا عن آراء الذين يدعون – اليوم – إلى العامية وإن اقتراحاته لأنْ تستوى العاميات.. لغاتٍ معـــبرةً هى كاقتراحاتهم.. اللهم إلا أن دعـــاة اليوم يَدَّعون أن العاميات أقرب إلى التعبير المستوفى لما فى العقل والنفس من الفصحى؛ لأنها (أى العاميات) عندهم أقرب إلى ذوق الناس، والتعبير عن معايشتهم لحياتهم اليومية.

– بَلَى.. لا نقره عليه...

=تفســـد الســـليقة، كما فسدت فى أيامه، أما بعد فســـادها.. فلا بد من الجمع بين قراءة النصـــوص الفصيحة، وتدبرها، وبين تعلم صناعة الإعراب، ولا أقول: تعلم الصرف، لأنه فطرى، فى كيان الإنسان. فلا حاجة لتعلمِهِ – تعلَمَ حفظ، أو.. تذكر، وإنما يكفى الإطلاع عليه. وقريب من الصرف: (= بِنْيَـــةُ) الكلماتِ، والتراكيبُ، فلا يحتاج تعلمها إلى أكثر مـــن قـــراءة النصوص الفصحية، [انظـــر: تفصيل ذلك فى كتابـــى (رؤى نحوية. وصرفية – تجديدية)–] جـ ٤/ ١٧١ – ٢١٩.

- **أولًا**.. لأن اللغـة الفصحى (لغة مضر) هى لغة فهم القرآن الكريم وتفسيره. والحفاظ عليها هو حفاظ على القرآن الكريم. ولذلك.. فالحفاظ على الفصحى من الدين، والقيام على أمرها عبادة.

- **وثانيًا**.. لأن العاميات.. محدودة الثروة اللغوية، ولذا.. فليسـت قـادرة علـى التعبير عن مكنونـات النفس كالفصحى. والثـروة اللغوية كالثروة المادية، فالذى يملك عشـرة آلاف دينار، فى الشـهر، يستطيع أن يشـترى ويقتنـى أكثر من الذى لا يملك إلا ألفًـا. أما ترى أن لغات الأقوام البدائية التى سـجلها العلماء المتتبعون لها.. لا تستطيع أن تعبر عـن كثير من مكنونات النفـس، وعن كثير من المعنويـات - كما تعبر اللغـات التى تتكلمها الأمم المتحضـرة؟ ذاك إلا لقلة ألفاظ اللغات ذات الأقوام البدائية، وكثرة ألفاظ اللغات ذات الأمم المتحضرة.

- **وثالثًا**.. لأن الفصحى ذات حركات إعرابية، والحركات.. تضيف معنى - غالبًا - إلى معنى الكلمات، وهى فى سياق، وهذه الحركات من أسباب الإيجاز الذى يعلو فى العربية الفصحى على الإيجاز فى اللغات الأخرى؛ لأن اللغات الأخرى ليست بذات حركات.

لغـةُ العـرب لهـذا العهـد لغـةٌ مسـتقلةٌ مغايـرةٌ للغـة مُضَـرَ ولغةِ حِميَرٍ:

- ويقولُ ابن خلدون:

(وذلك أنا نجدها فى بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سَـنَنَ اللسان المضـرى، ولم يفقـد منها إلا دلالـة الحركات على تعيـين الفاعل من المفعول؛ فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصـد. إلا أن البيـان والبلاغـة فى اللسـان المضرى أكثـر وأعرق،

لأن الألفـاظ بأعيانهـا دالة على المعانـى بأعيانها. ويبقـى ما تقتضيه الأحوال - ويسـمى بساط الحال - محتاجًا إلى ما يدل عليه وكل معنى لا بـد[1] وأن تكتنفه أحوال تخصـه، فيجب أن تعتبر تلك الأحوال فى تأدية المقصود لأنها صفاته، وتلك الأحوال فى جميع الألسن أكثر ما يدل عليها بألفاظ تخصها بالوضع. وأما فى اللسـان العربى فإنما يدل عليها بأحـوال وكيفيات، فى تراكيب الألفاظ وتأليفهـا، من تقديم أو تأخير أو حـذف أو حركة إعـراب. وقد يدل عليها بالحروف غير المسـتقلة، ولذلك تفاوتت طبقات الكلام فى اللسـان العربى بحسب تفاوت الدلالة علـى تلك الكيفيات كما قدمناه، فـكان الكلام العربى لذلك أوجز وأقل ألفاظًا وعبارة من جميع الألسن)[2].

- إنه، هنا، يرى أن الإعراب... له قيمة لا تنكر فى زيادة طبقة البلاغة، فقوله السـابق: (لأن الألفاظ بأعيانها دالة على المعانى بأعيانها. ويبقى ما تقتضيه الأحوال، ويسمى - بساط الحال - محتاجًا إلى ما يدل عليه... وأما فى اللسـان العربى فإنما يدل عليها بأحوال وكيفيات... أو حركة إعراب). فالإعراب معتبر ذا قيمة -عند ابن خلدون - فى تَجْلية المعنى.

- فهل هذا.. يتناقض مع كلامه السابق (فى أن اللغات تستغنى عن الإعراب -ومع ذلك.. تكون لها بلاغتها)؟

- الجواب..لا.

---

(١) لا بـد وأن: الصـواب أن يقـال: (لا بد أن)، فيحذف - الـواو - إذ لا موقع لها هنا، وأرى أن هذا من خطأ الناسخ، أو المحققين.

(٢) المقدمـة، ١٠٧٣-١٠٧٨، ثم تحت عنوان (علم النحو) يذكر ابن خلدون أهمية النحو مرة أخرى، ١٠٥٦.

– فابن خلدون يرى أن كل اللغات (ومنها – اللهجات العامية).. لها بلاغتهـا. بيد أنها «متفاوتة» فى البلاغة. ولهذا.. فهو يقول: (ولهذا.. كانـت لغة قريش أفصح اللغات العربيـة، وأصرحها، لبعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم[1])؟

– والقـول بأن اللغات كلهـا.. بليغة (حتى اللهجـات العامية) – قـول صحيـح. ولكن، هنـاك تفاوت بـين لغة وأخرى، فـى البلاغة. فليستس بلاغة اللغات البدائية القليلة الكلمات كبلاغة اللغات المتحضرة الغنية بالكلمات، لأن كثيرًا من المشـاعر الدقيقة، والمتدسّسة فى الشعور المستسـر[2] لا يجـد المتكلم باللغة الفقيرة بالكلمـات كلماتٍ تعبر عنها. وليس كذلك المتكلم باللغة الغنية بالكلمات.

– وليسـت اللغة المُعْرَبَةُ كالعربية الفصحى واليونانية القديمة كهذه اللغـات التى لا إعرابَ فيهـا. لأن اللغات المُعْربـة.. يكمل الإعراب فيها – عن طريق الحـركات – المعانى الدقيقةَ، وحالات المعانى هذه التى لا تستطيع أن تبرزها اللغات غير المعربة، وقد وضحنا ذلك عندما أوردنـا مثـلاً على الإيجاز المعجز فى القرآن بسـبب الحركات. وذلك فى تعبير القرآن عن وصية سـيدنا إبراهيم، وحفيده يعقوب – عليهما السلام – لأبنائهما[3].

---

(١) المقدمة، ١٠٧١ – ١٠٧٢..

(٢) الشعور المستسر هو ما ترجمه المترجمون العرب بكلمة (اللاشعور) وهذه ترجمة غير دقيقة لكلمة (UN-CONSCIOUSNESS) فهذه الكلمة تعنى (الشعور الداخلى أو الشعور المستسر أو – الشعور اللاواعى) أما اللاشعور – كما ترجموها – فلا يفرز شعورًا.

(٣) انظر: من هذا البحث – عنوان (المثال الثانى).

– ولأن الإعراب فى العربية الفصحى.. أوسع من الإعراب، وأشمل منـه –فى اليونانية القديمة.. فإن العربية – أبلغ بنسـبة، لعلها حوالى عَشْرٍ بالمئة (١٠٪) من اليونانية القديمة.

– وكل ما يؤخذ على ابن خلدون – هنا – أنه لم يوظف رأيه هذا، لكى يدعوَ إلى التمسك بالفصحى لأنها أغنى من غيرها بسبب الحركات ولأنها إلى هذا.. لغةُ تفسير القرآن الكريم.

الخلاصةُ

– يتبين من كلام ابن خلدون السابق عن اللغات شيئان:

..الأول أنـه على وَعْـى واضح أن كل اللغـات.. تنطوى على قدرة بلاغيـة، مـع تفاوت. أقول: وإنـى أريد أن أعلل لذلـك.. بأن الأصل فـى أى اسـتعمال لغوى أنـه تعبير عن فكر –أو عن وجـدان (عاطفةً، ومشـاعر، وأحاسيس). وفى مجال الوجدان تكون –البلاغة – أصلًا هى ما تفيضه المشاعر، والعاطفة والأحاسيس إلى اللسان وهذا الفيض هو مادة البلاغة أساسًـا ثم تكـون الألفاظ الحاملة.. له، هـى الصورة المنطوقة، أو المكتوبـة. وبقدر غنى اللغة فى الألفـاظ يكون تمثل هذا الفيض، فى صورة كلامية، فإذا كانـت اللغة غنية بالألفاظ.. فإن الصورة على يدى الأديـب الكبير تكون أقرب إلى الكمـال. وإذا كانت اللغة فقيرة بالألفاظ جـاءت الصورة معبرة تعبيرًا محدودًا عن هـذا الفيض، فكانت البلاغة أقل، ولكن.. لا يمكن أن تكون معدومة. وتزيد بلاغةُ الكلام – إذا كانت اللغةُ مُعْرَبَةً.

– وهكذا.. فكل نص أدبى.. لا يخلو من بلاغة، ولكنها تتفاوت من لغة إلى أخرى – كما تتفاوت من أديب إلى آخر، فى اللغة الواحدة.

ابنُ خلدون فقد مؤشر الاتجاه:

..والشيء الثاني أن ابن خلدون.. لا يصل اللغة بمرجعية معينة شأنُ اللغة عنده شأنُ جوانب فكره كله – فلا يعنيه أن يدعوَ إلى اللغة الفصحى باعتبارها لغة القرآن الكريم وباعتبارها أفصحَ اللغات وأبلغها بسبب حركات الإعراب وبسبب غناها بالألفاظ. وبهذا.. فابن خلدون كربان السفينة الماهر – بيد أنه فقد (مؤشر الاتجاهات)، فهو يدرك ما هو ضحل من البحر، وما هو عميق، وما هو ثائر، وما هو ساكن، وما هو ذو تيارات هوائية، أو –ذو دوامات، وما هو ليس بذى تيارات هوائية، ولا دوامات...

..بيد أن هذه المعرفة المستفيضة –عند الربان – لا توصله إلى «هدفه» لفقدانه مؤشر الاتجاهات. وإنى لأرى أن عدم تأثير فكره بمن جاؤوا بعده.. له أسباب عدة، ولكن ما يعنينا هنا منها هو شيئان..؛ الأول عدم تحديد «الاتجاه»[1]، فالذين جاؤوا بعده وجدوا فكرًا صحيحًا – غالبًا – في النظر إلى الأمور، ولكنه فكر سُكونى لا يُوَجِّهُ، ولا يعنيه أن يوجه.. فقرأته الأجيال، ثم.. تركته، لأنه لم يهدهم إلى الدرب التي يأتى في نهايتها الهدف. إنه وضعهم داخل نفق مضاء، ولكن نهايته مسدودة، للأسف. وهو على نحو من الأنحاء، يشبه بعض

(١) يرى الدكتور محمد جابر الأنصارى أن مقدمة ابن خلدون لم تؤثر فى اللاحقين، لأنها –في رأيه – جاءت فى نهاية المشهد الثقافى العربى (مجلة – العربى – العدد – ٥٧٤ – السنة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م) وهذا.. رأى لا يُطرح، ولكن ما قدمناه، آنفًا، رأى نراه أقوى، وإلا.. فلماذا لم تؤثر المقدمة، فى الأجيال العربية، بعد مطلع النهضة، منذ مئتى سنة، حتى اليوم.

أصحاب العقـول التحليلية فى هذا العصر، فالنـاس لم يتابعوهم، لأن هـؤلاء المحللين لم يكن هدفهم الوصـول إلى الحقيقة، وإنما كان هدفهم إقناع الناس بما فى أنفسـهم من هوى وانحراف، فأطرحهم الناس. بيد أنه يفارقهم انه لا يكتب عن هوى.

– والثانـى.. أن العقل العربـى بتياراته المتعددة إلا مشـاعلَ قليلة تجاهـد، فلا تبدد الظلام – يفتقر إلى «التحليل» الذى برع فيه – أمثال ابـن خلـدون ت – ٨٠٨ – والجاحظ، قبله (ت ٢٥٥هـ) – وأبى حامد الغـزالى (ت – ٥٠٥) – رحمهـم الله – إلى حـد مـا، والفقهاء الأربعة الكبـار: أبـو حنيفـة (ت –١٥٠)، ومالك (ت – ١٧٩)، والشـافعى (ت– ٢٠٤)، وأحمد بن حنبـل (ت–٢٤٦)، ثم.. جاء بعدهم، بقرون فقيهان عظيمان مَشـرقيّان، هما: ابن تيمية (ت–٧٢٥) وتلميذه ابن قيم الجوزية (ت – ٧٥١) وفقيه أندلسـى واحد هو الشـاطبى (ت – ٧٧٩) وهـؤلاء الفقهاء السـبعة (رضى الله عنهم) كانوا أصحـاب عقول تعتمد التحليـل، إلى حد ما، وأقول: إلى حد ما لأن تحليلهم كان ينصب على الجزئيـات، باعتبار أن الفتوى للمسـائل اليومية هى همهم – ولم يكن تحليلهم يمتد، سطوليًا، لكى ينتج نظريات... وأفر بهم إلى النظريات، بل الكليات – الشاطبى[1].

– فـإذا تجاوزت هؤلاء.. أعياك أن تجد لهم نظيرًا. ولقلة العقول – التـى تقوم على ملكة قـادرة فى التحليل كثر الكذب فى أخبار سـيرة الرسـول العظيم – صلى الله عليه وسـلم – وخاصة مـا كان عن العهد

(١) فـى كتابى [العصمتان] – سـبق ذكره – تفصيـل – للكليات فى الفقه والفكر – وللجزئيات – فى الجزء الثانى – من أجزائه الخمسة.

المكى وكثر الكذب فيما نسب إلى الرسول العظيم من حديث[1]، حتى إذا استثنيت صحيح البخارى وصحيح مسلم وموطأ مالك - رضى الله تعالى عنهم - (وفى كل منها بعض الأحاديث المشكوك فى صحتها)[2] - ثم.. جمعت أحاديث كتب الأحاديث الأخرى، فى مجال واحد، نبيّنَ أن ما يقرب من خمسين بالمئة (٥٠٪) مشكوك فيه. وإذا بدأ لك أن فى هذا الكلام شيئاً من المبالغة.. فانظر فى مجلدات عشرة، كل مجلد فيه خمسمئة حديث (٥٠٠) باطلة أو موضوعة، أو ضعيفة، استخرجها الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى - رحمه الله - من كتب السنن الستة - وحدها-!.

ما ذاك إلا لافتقار العقل العربىّ إلى ملكة «التحليل» والله تعالى أعلم.

- إذن.. افتقار العقل العربى إلى التحليل - لم يُمَكِّن من الإفادة القادرة من تحليل ابن خلدون.

○○○

(١) المرجع السابق - الجزء الخامس كله.

(٢) انظر: الدكتور صبحى الصالح. علوم الحديث ومصطلحه، ٣١٧، دمشق، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٥٩-١٣٧٩. العلماء انتقدوا مئة وعشرة أحاديث (١١٠) عند البخارى.